مجلة البدر المجلد 10 العدد 09سنة 2018 ISSN 2170-0796

الـرّثـــاء في شعـــر أسامـــة بـــن منقـذ

ط/د: أشواق تريعة

جامعة: محمّد خيضر_ بسكرة

ملخص:

يُعدُ الرّثاء من أهمِ الفنون الشّعريةوأصدقِها وأكثرها تأثيراً في النّفس البشرية ؛ لأنّهُ يصدرُ عنْ نفسٍ تُعاني مرارةَ الحزن والأسى؛ ولأنّ العامل الإنساني هو الذي يطبعُ هذا الفن بطابعهِ ليصبح بذلك فنًا إنسانيًا يرتفع فوق المصلحة الذّاتية، والشّاعر " **أسامة بن منقذ** " من الشُعراء الذين فُجِعُوا في أحبتِهم وفلذَاتِ أكبادهم، فبكى واسّتبكى شأنه شأن الشّعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين، وهذه النُّقطة استوقفتني واستفزّتني فقررتُ أن أُسلط الضّوء عليها في هذا المقال، مُسّتظهِرةً ومحللةً أهم المقطوعات والمرثيات التي كتبها الشاعر بدموعه قبل قلمهِ.

الكلمات المفتاحية: الرّثاء، الشّاعر ، شعر ، أسامة بن منقذ ، الحزن .

Abstract:

Lamentablenessisconsidered the most important and believable art. Alsoitis the most affective art in the human soul becauseitcomesfrom a soul whichsuffersfrom grief and sorrow and human factor whichcharacterizesthis art to become a human art risesupon self- interest. And "**Oussama IBenMounketh**"is one of thepoetswhosorrowed in theirlovers and sons.He cried and made manyoldpoets to feelpitytowardhissituation.This point stoppedteased me so,I decided to shade a light on it in this article showing and analysing parts and Lamentablenessthat the poetwrotewithhistearsbeforehispen.

Key words:Lamentableness, poet, poetry,Oussama IBenMounketh,grief.

تمهيد:

الموت حقيقةٌ تؤلِم النّفس البشريةوتقضِ مضجعها وتتزامن هذه الحقيقة مع استمرار الحياة والوجود؛ فأينما وُجِدت الحياة وُجِد الموت، وقد عبّر الإنسان عن حزنه وآلامهِ وجزعهِ إزّاء هذه الحقيقة بانْفعالات شتّى تُرافقُها ممارسات تتحدد بالأُطُر الثقافية والدينية للمجتمع، إلاّ أنّ البكاء هو أكثر صور الانفعال الإنساني فطريةً وصدقًا،لذلك ظهر الرّثاء كغرض يُعبر فيه الشّعراء عن أحزانهم وأشّجانهم إزّاء فقدانِ عزيزٍ عليهم، لذلك فالرّثاءكانوما زال غرضًا شعريًا إنسانيًا يُعبر عن ذرّوةِ العواطف المشحُونةِ بالأحزان، ولا يكاد يخلُو ديوان شعري من غرضِ الرّثاء، لذلك لا غرّو إن تصفحنا ديوان الشّاعر " **أسامة بن منقذ** "ووجدناهُ حافِلاً بهذا اللّون الشّعري، حيث بكى واستبكى

شأنه شأن أي شاعر تعرّض لفاجعةِ الموت، وقبل أن نغوص في أعماق وجذور الحس المأساوي أو الرثاء في شعر أسامة بن منقذ نأتي أولاً للتّعرف على الشاعر فمن هو أسامة بن منقذ؟ وكيف تجلّى الحس المأساوي في مرثياته؟

1- الشّاعـــر أســـامــــة بــن منقـــذ فـــي سطـــــور:

أ- اسمه ونسبه:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكناني الكلّبي، الملّقب بأبي المظفر بن أبي سلامة بن أبي الحسن بن أبي المتوج الكِناني الشّيزري أو مؤيد الدّولة أو أبو سلامة[i].

ب- مـولــده:

وُلِد الشاعر " **أسامة بن منقذ** " يومالأحد السّابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة488هـ/يوليوسنة1095م، وقد أكّد **العماد الأصفهاني** هذا الخبر؛ إذ سمعهُ من الشاعر أسامة بنفسه لمـّا سُئِلعن تاريخ مولــدِه **يقـــول**:
" وُلدتُ سنة ثماني وثمانين وأربعمائة أي 488هـ "[ii].

ت- نشـأتـه:

نشأ الشاعر أسامة بن منقذ في بيتٍ يتّسمُ بالفروسية والشّجاعة وتحمُلِ المصاعبِ والمشاق، حيثُ تلّقى تعليمهُ على أيّدي فُقهاء وأُدباء ومؤرخين، فدرس الفقه والحديث والأدب وحفظ كثيراً من الشّعر القديم وقصص الأدب والتاريخ، كما تسنّى له أن يطّلِع على تراث العرب من شعرٍ ونثرٍ فحفظَ الكثير من أشعارهم وأخبارهم حتى أصبح مخزونٍ وافرٍ من الثّقافة العربية، حيث حفلت كتبهُ بأشّتاتٍ منها، كما ضمنّت الكثير من مختارات الشّعر ومفردات البلاغة وجوامع الكلم[iii].

هكذا نشأ مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة في كنف أسرة مثقفة، فدرس اللغة والنّحو والأدب دراسةً مستفيضةً، واطّلع على التاريخ والسِّير وعلّمهُ أبُوهُ النّجُوم ومواقعها وتمرّس بأساليب القتال والصّيد[iv].

ث- وفاتــــه:

توفي الشاعر أسامة بن منقذ في الثالث والعشرين من رمضان سنة584هـ/1188م، بناءً على ما ذكره **ابنخلكان** في **الوفيات**: " دُفِن أسامة في الغدِ شرقي قاسيون ودخلت تربتهُ جانب نهر يزيد الشّمالي، وقرأْتُ عندهُ شيئًا من القرآن وترحّمْتُ عليه "[v].

ج- آراء الأدباء والنُّقاد فيه:

لا يمكنُ أن يكون هناك شخصٌ في مكانةِ " **أسامة بن منقذ** " دون أن يكون لأهلِ العلمِ والنّقد رأيٌّ فيه، فقد ذكره **الأصفهاني** بقوله: " إنّ أسامة كاسمهِ في قوةِ نظمهِ ونثره، يلُوحُ من كلامهِ إمارةُ الإمارة نُشر لهُ علمُ العلمِ،

ورقى سلّم السّلمِ، ولزِم طريق السّلامةِ وتنكّبَ سُبُلَ الملامةِ واشّتغل بنفسه، حُلو المساجلةِ، ندي النّديِّ بماءِ الفكاهةِ، عالي النّجمِ في سماء النّباهة معتدل التّصاريف، مطبوع التّصانيف "[vi].

كما نقل **ابن العديم** عن **السّمعاني** قوله: " أسامة أمير فاضل غزير الفضلِ، وافر العقلِ حسن التّدبيرِ مليح التّصانيف، عارفًا باللّغة والأدب مجوّد في صنعةِ الشّعر من بيتِ الإمارة والفروسية واللغة "[vii].

وقال عنّه**ابن العساكر**: " لأسامة يدٌ بيضاء في الأدب والكتابة والشّعر... مالك عنان النّظم والنّثر، متصرّفٌ في معانيه، لاحقٌ بطبقةِ أبيه... فقصائدهُ الطّوال لا يفرقُ بينها وبين ابن الوليد –يعني البحتري أو مسلم بن الوليد– [viii] ويقول عليه الإمام **الذّهبي**: " أسامة أحد أبطال الإسلام ورئيس الشعراء الأعلام "[ix].

2- الـــرّثـــــاء لغــــــةًواصطــــلاحًـــا:

أ- الرّثـــاء لغــــــةً:

وأمّا معنى **الرّثاء**، فجاء في **لسان العرب**: "رثا: رثّيتُ الميّت رثيًا ورِثاءً ومرثاةً ومرّثيةً، ورثيتُهُ: مدحتُهُ بعد الموت وبكيتهُ، ورثوتَ الميت أيضا، إذا بكيته وعددتُ محاسنه، وكذلك إذا نظمتُ فيه شعرًا "[x].

وجاء في **تاج العروس**: " رثأتُ الرّجل بعد موتهِ رثًأ: مدحته بعد موته "[xi].

مما سبق نستنتج أنّ تعريف الرثاء يتمثل في جانبين هما: التعبير عن مشاعر الحزن وذكر محاسن الميت وأمجادهِ؛ فبكاء الميت أو التعبير عن مشاعر الحزن والأسى أمرٌ ضروري حيث لا يستقيمُ دونه الرثاء.

ب- الـرّثــاء اصطلاحًا:

أمّا في **الاصطلاح**: " فهو تعبير الشّاعر عن تجربة الحزن والأسى والتّفجع واللّوعة لفقدان ما هو عزيزٍ ومُحببٍ إلى النّفس، أو هو بكاءُ الميّت والتّفجعِ على فقدانه وتعديد محاسنه؛ فهو من ألّصقِ الفنون الشّعرية بالنّفْسِ الإنسانية ومن أصدقِها تعبيراً عن تجربةِ الحزنِ والأسى والألم "[xii].

وفي تعريفٍ آخر **للرّثاء**: " هو تصوير حزن الشاعر لموتِ إنسانٍ واستثارةِ نفس الحزن في السّامعوالقارئ "[xiii]

أو " هو النوّاح والبكاء على الميت بالعبارات الشّجية والألفاظ الحزينة التي تصدعُ القلوب القاسية وتُذيبُ العيون الجامدة،وللـــرّثــاء ألــــوان شــتّى منها؛ **النّــدبُ، التــأبين، والتعــــزيــــة**"[xiv].

يقول **مصطفى صادق الرّافعي**: " يُعدُ الرّثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا العربي والتي حظيت بعناية فائقة من الشّعراء عبر العصور المختلفة؛ لأنّ الموت قديم قدم الإنسان على هذه الأرض وما من شاعرٍ إلاّ وجرفتهُ مواكبُ الموت بين الأهلِ والأحباب والأصدقاء، ففجرت فيه ينابيع الشعر وأثرتْ قريحتهُ بما لا تجُودُ به في غير هذا الموقف"[xv].

ولهذا كان لكل أمةٍ منذُ القدم مراثيها وقصائدها الباكية والأمة العربية من الأمم التي تحتفظُ بتراثٍ ضخمٍ من المراثي منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحديث وهي عندهم متعددة الألوان والغايات تبعًا لتعدد المواقف والأحوال والاتجاهات، فمنها ما يرسله الشّاعر بُكاءً وندبًا على الرّاحل يستذرفُ الدّموع ليُطفِئ لوعة الفراق ويُجسّم عظم المأساة التي تركها هذا الأخير وغالبًا ما يكون هذا البُكاء والنّدب على الأقارب الذين تخترقهم المنية من أبناء وآباءٍ وإخوةٍ يبكيهم الشّاعر بالدّموع الغزار ويبثُهم لوعةَ قلبهِ وحرقة فؤاده[xvi].

3– تجليــات الرّثــــاء فـــي شعـــر أسامـــة بن منقـــذ

حفل الشعر العربي على امتداد عصوره بألوان الرّثاء على اختلافها والذي لاشكّ فيه أنّ رثاء الأهل في الشعر العربي كثيراً ونابضًا بالحياة ورثاء الأبناء أشدُ لوعةً وألمًــا وحرقةً، وقد كانت سيرة حياة الشاعر"**أسامة بن منقذ**"سيرة الموت الخاطف واللاّمع في الأفق بالتّمام والكمال وتجلّى ذلك في مرّثياته لابنةِ شقيقهِ، وابنهِ " أبا بكرٍ"، وأهلهِ حين داهمتهم الزّلازل، وديارهِ التي أصبحت أطلالاً وبقايا آثارٍ ودمنٍ.

أ– رثــاء ابنـــة الأخ:

تجلّى رثاءُهُ لابنة أخيه في قصيدة كتبها من مصر لأخيه " عزّ الدولة "، حين ماتت له بنتٌ **بشيزر** وهو غائبٌ عنها بدمشق وأعمامها وأخواها غُيّبٌ، فأخذ يبكيها في هذه الأبيات المشّجية متحسرًا عليها؛ لأنّها ماتت وحيدة وغريبة رغم أنّها تملكُ الأب والأشقاء والأهل، حتى صار ذكرها في الأرجاء يُدمي القلوب قبل العيون[xvii]:

ويْحَ الغريبة والدّيـــارُ ديارُهَـــا — لَمْ ترتحِـلْ عنْهَـــا ولــمْ تتغــرّبْ
مَاتَتْ غَريبةً وحِــدةٍ من تربِهَــــا — وشَقيقهَـــا، ومن العُمُومـــةِ، والأبِ
فَهي الوحيدةُ والأقَـاربُ حولهَـا — وهي البَعيـــدةُ في المحلِ الأقــربِ
فإذا تضرّمَ في الجوانحِ ذكْرُهــا — قَـالَ الأُسَــى: باللّهِ يَا عيّنُ اُسْكُبِــي

ب– رثـــاء الابـــن:

ولمـّا سرق الموت منالشاعر أسامة بن منقذ ابنه" **أبا بكر** "وقد كان صغيراً في مقتبل العمر، أخذ يصور حزنه الشّديد لفقدانه فلذة كبدهِ وقرّة عينهِ رافعًاشكواهُ وبَاثًا حزنهُ وحرقةَ أحشائه إلى الله، على من كان يخاف عليه اليّتم بعدهُ، لكن شاءت الأقدار أن يكتوي بنيران ثكله ولوعةِ موتهِ، وذلك جعله يتمنّى أنّهما لو تبادلا الأدوار، ليصبح الموت من نصيبه ويسكن القبر قبل ابنه، ويصير الابن بذلك من يُثكَل في والده؛ لأنَ بعد ابنه لا راحة ولا سعادةً وخاصةً إن أطال الله في عمره بعده، هذا ما صرّح به أسامة في هذه المرثية[xviii]:

إلى الله أشّكُو رَوعَتـــي ورزيّتِي — وحُرّقَــةَ أحْشَـــائي لفقْدِ أبِي بكْــرِ
خشِيّتُ عليهِ اليُّتمَ لكــنْ ثكْلَـــهُ — ولَوعَتهُ لَمْ يخطُرا لِي عَلَى فكْــــرِ

فيا ليّتهُ لاقى الذي كنْتُ أخْتَشيعليه وأنّي دُونَـــهُ صَـــاحبُ القبرِ
فمَا في حيَاتي بعْـــدهُ لي راحَـةٌ فيَا طُول حُزني إنْ تطَاول بي عُمْري

وحين يتّجه الشّاعر أسامة إلى قبر ابنه، يتأجج الحزن بداخله خاصةً حينما يرى أنّ ابنهُ قد وارى الثّرى، ثمّة يتأكد أنهُ قد فقدهُ للأبد وأنّهُ لن يعود مرةً ثانيةً، لذلك نجدهُ يرثُوهُ بهذه الأبيات الحزينة مُتعجبًا من فيضِ دمُوعه التي تخرج مُعبرةً عنْ مدى حرقةِ قلبه وكبدِهوالتي صار يشبهها بالماء الفائض من شدة غليانه على النّار؛ أيّ وكأنّ الحزن والألم الذي بداخل الشّاعر نارٌ جعلت دموعهُ تفيض من شدة حرّها، ففاضت دموع العين كفيضان الماء لشدة حرّ النّار يقول[xix]:

أزُورُ قبْـرك مُشّتاقًــا فيحْجُبُنــيمَا هيــلَ* فوقَـكَ منْ تُرْبٍ وأحْجَــارِ
فأنْثَنِي ودُمُوعِي منْ جَوى* كبدِيتفِيّضُ فأعجبُ لِمَاء فَــاضَ من نَــارِ

ويبدو أنّ شبح الأحزان قد سيطر على عقل الشاعر أسامة قبل قلبه، لذلك صار يُضيّعُ طريق عودته حينما يزُورُ قبر ابنه " **أبا بكرٍ** " وهذا طبيعي؛ لأنّه عندما يزورهُ لا يرى سوى ترابًا وأحجاراً متراصفةً ومتناسقةً قد احتوت هذا الابن الغالي، فلا عجب إن بداهذا الشّاعر حائرًا تائهًا في لياليه كالسّكران الذي لا يُميّزُ ليله من نهاره وذلك في قوله[xx]:

أزُورُ قَبْــركَ والأشّجَــانُ تمنـعُنــي أنّ أهْتَـــدي لطَــريقي حيــــنَ أنْصَــــرِفُ
فمـا أرَى غيْــر أحجـــارٍ منضّـــدة قَـــدْ احْتـــوتكَ ومَـــأوى الدّرَة الصّــدفُ
فَـأنْثنَــي لسّــتُ أدرِي أيّنَ مُنْقَلَبِــيً كَـــأنَنِّي حَـــائِــــرٌ فِـــي اللّيــلِ معْتَســفُ

ولأنّ الموت خطف منه ابنه في عمرِ الزّهور والذي كان يأمل أنْ يطول به العمر لكن شاءت الأقدار أنْ يتخطّفهُ شبح الموت في سنٍ مبكرٍ فلم يصبر على هذا الخطب الجلل فأخذ يبكيه في هذه الأبيات الباكية الصّادحة[xxi]:

رُزئتُ أبَـــــا بكْرٍ على شغفِي بِهِ فَيَا لهفتَـــا مَـــاذا جَنـــي الحَــادثُ البكْــرُ
لِسَبعٍ مَضتْ من عُمْرِهِ غالهُ الرّدى وكُنْـــــتُ أرجـــــي أنْ يطُـــول بـــه العُمــرُ

ويخاطبُ ابنه بخطابٍ مريرٍ يخبرهُ فيه أنّ حزنه لم ينته بطول اللّيالي وانقضاء الأيام والشّهور، بل اللّيالي بعده صارت جحيمًا لشدة طولها والزمن كله صار عنده ليلٌ ماله فجرٌ وما زاد اللّيل طولاً النّعاس الذي نفرَ من مقلتيه فيقول محاولاً وصف حالته الصعبة لابنه محاوراً إيّاه كأنّهُ أمامهُ[xxii]:

أبَا بكرٍ ومَا وجْدي عَليّكَ بمُنْقصٍ طوالَ اللّيالي ما انْقضَى اليّومُ والشّهرُ
أطلتَ عليّ اللّيلَ حتّى كأنّمَـــــا زمَـــانِي ليّــلٌ كــلّــهُ مَــالــهُ فجــــرُ
وإنِّي لأسّتدْعِي الكَـرى وهُو نَــافرٌ بِهِ من جُفُونِي أنْ يُلِـــمَ بهَـــا ذُعْــــرُ

ويعود الشاعر مرة ثانية ليخاطبابنه متسائلاً عن عجزه أمام حزنه الشّديد على الصّبر عنْ فراقه، فطيفُ خياله لا يفارق قلبه وعينيه أينما اتجه وأيّنما حلّ في قوله ساكبًا دموعه مدرار[xxiii]:

كَيْفَ أنْسَاكَ يـا أبَـا بكْـرٍ أمْ كيفَ اصْطَبَاري ما عنْكَ صبرْي جميـلُ

أنْتَ حيّثُ اتجهْتَ في أسْودي عَيّـ ـنِي وقَـلْبـي مُمَثَـلٌ لا تـَـزُولُ

ت- رثـاء الأهل والأحبة:

لقد تعددتْ مظاهر الفقد في حياة الشاعر " **أسامة بن منقذ** "، فتشعبتْ يدُ الموتِ في النّيلِ من كلِ من يحْتلُ مكانةً بقلبِه، فقد نال من أهله ليُشبعَهُ ألمًا وحسّرةً؛ حيّثُ فقدهُم بالزلزال الذي ضرب **شيزر** سنة (**552هـ**)، فقام برثائهم بأبيات مريرةٍ يُصوّر فيها الوحدة والوجد الذي أفْنيَا قلّبه وروحهُقبل جسده في قوله[xxiv]:

لَمْ يتركْ الدّهْرَ لِي منْ بعْدَ فقْدهمْ قلْبًـا أُجَشمُـهُ صبْـرًا وسلْوانَـا

فلَو رأَوني لقالُوا: مَاتَ أسْعَدُنَـا وعَـاشَ للْهَـمِ والأحْزَان أشْقَـانَـا

لَمْ يترُكْ الموتُ منهُم من يخبرُنـي عنهُـمْ فيُوضِـحُ مَـا لاقَـوهُ تبْيانَـا

ويندُبُ وطنهُ وأهلهُ الهالكين في الزلازل التي حلّت بحصنِ " **شيزر** " بهذهِ المرّثيات الحزينة التي احتار فيها أيبكي وطنهُ أم زمانهُ الذي قضاهُ فيها أم أهلهُ وشبابهُ الرّاحل[xxv]:

حيّا ربُوعَـكَ منْ رُبَى ومنَـازِلِ سَـاري الغمَـامِ بكُلِّ هامٍ هَاملِ

أبْكيك أمْ أبْكـي زَمَـاني فيّك أمْ أهْليك أمْ شَـرخَ الشّبَـاب الرّاحلِ

مَا قدرُ دَمْعـي أنْ يُقَسّمَهُ الأسَى والوجَـدُ بيـنَ أحبـةٍ ومنَـازِلِ

ويحاول الشاعر السّيطرة على حزنه اتجاه من فقد من الأهلِ والأقرباء لكن دون جدوى، فقلبهُ متعلقٌ بهم تعلقًا شديدًا كيف لا وهم سُيوفهُ إذا نزلت به مصيبة أو بلاء، وكيف التجمل وفراقهم ترك في القلب نارًا تلظَى وفي العيون دموعًا لا تجفُ ولا تنضب، لذلك يقول عنهم[xxvi]:

حَاولتُ كتمانَ بثّي بعْدَ فقْدهمْ فَلـم يُطـقْ قلْبـي المحزُونُ كتـمَانَـا

ومَا دَرَى أنّ في قلـبي لفقْـدهـمْ نَارًا تلظّـى وفي الأجفَـان طُوفَانَـا

بَنُـو أبِي وبَنُـو عَمّي دَمّـي دمهُـمْ وإنْ أرونـي مُنَـاواةً وشنـآنَـا

كَـانُوا سُيُـوفِي إذا نازلْتُ حَـادثـةً وجُنَّتِي حينَ ألقَى الخطبَ عَـريَـانَـا

فَكيفَ بالصّبْرِ لِي عنْهم وقدْ نظمُوا دَمْعـي علَـى فقْدهـمْ دُرا ومَرّجَـانَـا

ويبكي أسامة أهله وأوطانهُ، فليس له بعدهم دارٌ ولا سكنٌ فالموتُ لم يترك له أحدٌ منهم يُشاركه وجدهُ ووجعهُ ويبثهُ كمدهُ، لذلك يقول[xxvii]:

بكيتُ أهْلي وأوطَـــــانِي وآسَفَـــــنيأن ليّـــس لي بَعْـــدهُمْ دارٌ ولا سَـــكَـــنُ

أخْنَى الزّمَــــانُ على قومـــي ومُلّكَ أوْ طَــــانِي سِـــواي فَـــلاَ أهْـلٌ ولا وطَـــنُ

ولَـمْ تَـــدعْ لِي المَنَايَـــا مُشّتكَى حُزن أبُثُّـــــهُ كَمَـــدِي إنْ عَـــادَنيحُـــزنُ

ولمـّاصار تذكرواسترجاع الذكريات السّعيدةيُهيّجُ نيران الحزن والأسى بداخل الشاعر اقتنعواكتفى بالعيش والحياة؛ لأنّهذه الحياة مصدر شقائهِ وتعاسته فقد جلبت إليه إلاّ المحن والصّعاب، بل الأكثر من ذلك أنّهُصار يتمنّى الموت بدل العيش في دائرة الضيق والأذى فأيُّ عيشٍ هذا والوحدة أتت إليه مهرولةًتجرُ ذُيولها بعد رحيل الأترابِ والخلان وبقائه وحيدًالذلك يقول ضاجرًامتأوهًا[xxviii]:

حَسْبِي من العيّشِ، كمْ لاقيّتُ فيه أذًى أَقَلُّـــــهُ فقْــــدُ أتْـــرابِي وخُـــلاّنِـــي

لَمْ يبقْ لِي من مُشّتكَـى بثٌّ أُحَمِلُــهُهَمّي، ولا منْ إذا اسْتصرّخْتُ لَبّـانـــــي

وَصُمَّ عنّي صَدَى صَوتِي، وأفَــردَنـي ظلّي، وملّ الكَرى والطّيفُ غشّيانـــــي

ومَــا نظَـرتُ إلى مَا كـان يُبْهِجُنـي إلاّ شجَـــانـــي، وآسَـــانِي، وأبْكَـانِـــــي

ث- رثــــــاء الأصـدقـــاء:

خلق اللهُ تعالى الإنسان بطبعه اجتماعيًا يحتاج دائمًا لأشخاص يشاركونهُ تفاصيل الحياة بحلوها ومُرّها، والإنسان سواءً أكان رجلاً أو امرأة بحاجة لشخصٍ يُشجعُهُ دائمًا ويسمعُ له إن أراد التكلم ويعطيه القوة إن ضعف هذا الشخص هو الصّديق، فالصّداقة من أسمى العلاقات في الوجود لكن حينما يتعرّض الإنسان لخسارة هذا الصّديق يتعب ويتأثر نفسيًا خاصة إن كان هذا الصديق وفيًا، وهذا ما بدا واضحًا في هذه الأبيات الحزينة التي بكى فيها الشّاعر أسامة بن منقذعلى صديقهُ خاصةً عندما وصله خبرُ موتهِ، فكيف يصبر وقد امتُحِن ببعده وهو حيٌّ يرزق ولم يكتفِ القدر بهذا بل أخذه منه نهائيا بالموت، فكان فراقهم فراقين فراق الغربة وفراق الموت الذي لا رجعة منه فيقول الشّاعر مصورًا حالته النّفسية[xxix]:

صَبْرِي على فقد إخوانِي وفُرّقَتِهِمْ غَدْرٌ وأجمَلُ بِي منْ صبْرِي الجزَعُ

تَقَاسَمَهُمْنَوًى شطّتْ بهم وردًى فالحيُّ كالميّت ما في قربه طَمَـعُ

ويُصورُ الشّاعر الوحشة التي حلّت به حين فقد أصدقائه وأتراب صباه بعد أن كان مجتمع الشّملِ معهم مُقْسِمًا أنّهُ لا فائدة من العيشِ المنفردِ في قوله[xxx]:

وأصبحتْ وحشّةُ الغَبراء دونَهُــمْ من بعْد أُنْسي بهمْ والشّملُ مُجتمعُ

وعِشّتُ مُنْفرِدًا منهُم وأُقْسِمُ مَـا يكَــادُ مُنْفَــرِدٌ بالعيّـــشِ ينْتَفِـــعُ

ج- رثــــاء المنازل والديّار:

فطر اللهُ تعالى الإنسان على الألّفة والحنين للوطن الأم أو السّكن الذي يأويه ويحميه من حرّ الصّيف وقرّ الشّتاء، خاصةً عندما يكونُ هذا الأخير يحملُ في ثناياه الذكريات الجميلة وفجأةً يصبحُ ما عهدهُ به للأنسِ واللّعب مع الأتراب صدًى كلّما ناداهُ لبّاهُ، لذلك لا نستغرب بكاء الشّاعر **أسامة بن منقذ** على وطنه وديارِه في هذه المقطوعة التي تصدحُ بالألم الذي يكتوي به فؤاد هذا الشاعر الحزين يقول معبراً[xxxi]:

يُعنفُنِي فِي الدّارِ صحْبِي على البُكَا فيَا ويّـحَ قلْبـي منْ خَـليٍّ وجَـاهــلِ؟

وقالُـوا: أتَبْكِـــي للمنَــازِلِ قُلتُ لاَ ولكنّمَــا أبْكِـــي لأهــلِ المنَـــازِلِ

ويصفُ أسامة المنازل التي احتوت أهله وأحبتهُ كيف صارت خرابًا وخاويةً على عروشها بعدما أصابها الزلزال، ثمّ يصنع حوار مع المتلقِي حيثُ يأمرهُ بأن يسأل ويُسائلبقايا هذه الأطلال والدّمن والرّسوم التي خلّفها الزلزال ماذا لقوا بعد ذهاب من كانوا يعيشون فيها؟ وكأنّ هذه الديار ستجيب على هذه الاستفهامات وستكون الاجابة عن هذه التساؤلات بأنّهم فارقُوا هذه الدنيا وسكنُوا التراب ليبقى هو بعدهم متفردًا بحزنه وكآبتهِ، حتى صار يرى في الموتِ أعظم راحة ليلحق بمن يحب فيقول[xxxii]:

هَذي منازِلُهــمْ عفَــتْ وتفَرّقُــوا فَسَـلْ المَنَــازلَ عنّهُــمْ مَـاذا لقُــوا؟

تُخْبِـرُكَ أنّ الأرْض قَـدْ وارتْهُــمْ وأبَـتْ لهُـمْ أن يسّمَــعُوا أو ينْـــطقُـوا

وَبقيّتُ بعْــدهُمْ لهـــمّ فَـــادحوكَــآبـة تُضّنِــي وخطْـــب يُطْـــرقُ

أرّجو اللّحَاقَ بِهِمْ ودُونَ لحَاقهِــمْبَــابٌ منْ الأجَــلِ المُـؤَقت مُغْلَـــقُ

ويُصور حالتهُ حين يتذكر هذه الرّبُوع والديّاركيف صارت، فيشّتدُ الحزنُ بداخله فيصيرُ كالذي أصابهُ السّحر أو المسّ، خاصةً حينما يتذكر أنّهم لن يتكررُوا مرةً ثانية فلا صبر ولا عوض عمّا فقد من أحبة،فيقول عنْهم[xxxiii]:

إذا مرّ في فكْـري الديّارُ وأهْلُهَـا فَبَالِـي منْ وجّــد يُجــــددُهُ الذّكــــرُ

إذَا أوحَشّتْنِي وحْدَتِي بَعدَ فَقْدهِـمْ ولهْــتُ كَـأنِّي قَــدْ أصَــابَنِي السّحْــرُ

فكَيف التّسلّي والتَـأَسّي فِيهِــمْ ولاَ عَــوضٌ منهُــمُ ولا عنّهُـــمُ صَبْـــــرُ

خاتمة:

-يمكن القول إنّ الرّثاء حديثُ القلب الجريح وتعبير العين الحزينة الصّادرة من تجربة صادقةً لفقد عزيزٍ على النّفسِ، أخذت صورتهَ أصدق الصّور تنبع من وجدانٍ حزينٍ وإحساسٍ مرهفٍ، وخيالٍ صادقِ الشُّعور، يخاطبُ من فارق الحياة الدنيا وترك فراغًا واسعًا في حياة منْ يرثيه، فليس هناك مصيبة أعظم من الموت وفقد الأحبة؛ لذلك كان شعرُ الرثاء متميزًا عن غيرِه في جلبِ الأحزان للمتلقِي، والدليل على ذلك أنّهُ لو استمع أحدٌ منّا إلى

إحدى المراثي الجيدة لأحسَّ بعد الفراغ منها بالحزنِ العميق والكآبة وكأنّهُ دخل إلى قلبِ صاحبها وأعماقِهِ ورأى ما يُعاني من عذابٍ وألمٍ.

-قَد يتفاوت الشّعراء في درجة التأثر بالموت وذلك يرجع إلى حياة الشّاعر الخاصة ومدى تكرر الموت فيها لكن هذا لا يمنعُ أيّ شاعرٍ من أن يُعبر عن الحزن والألم الذي احتوى قلبهُ وسيطر عليه.

-لقد ظلّ الموت بالنسبة للشاعر " **أسامة بن منقذ** " بمثابة المأساة الخانقة والسّبب الرّئيسي في قلقهِ وحيرتهِ وضياعهِ فلم يستطيع الهروب منه؛ لأنّه أحد معطيات الواقع الاجتماعي الذي يعيشهُ لذلك لا نستّغرب إن وجدنا له لوحات رثائية صادحة ومعبرة عن مدى ألمه وحزنه الشّديد والجوى الذي اجتاح قلبهُ وفؤادهُ الجريح، فقد عظمت الرّزية ففاضت بوادرُ الدّموع وتتابعت الزّفراتُ معبرةً عن ألمِ الفِراقِ ولوعةِ الثّكلِ والوحدة.

الإحالات والهوامش:

[i] ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكّار، ج3، دار الفكر للنّشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط1، (د، ت)، ص1361.

[ii] عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء الشّام)، تح: شكري فيصل، ج1، المطبعة الهاشمية، دمشق، سوريا،(د، ط)، 1375هـ/1955م، ص498.

[iii] مُحَّد عدنان قيّطاز: أسامة والجديد من آثاره وأشعاره، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، (د، ط)، 1998م، ص12.

[iv] أسامة بن منقذ: ديوان الفارس أسامة بن منقذ، تح: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1983م، ص05.

[v] ابن خلكان: وفيات الأعيان،تح: إحسان عبّاس، ج1، بيروت، لبنان، (د، ط)، 1978م،ص199. **ينظر أيضا**:ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح: إحسان عبّاس،ج2، دار بيروت، للنشر والطباعة،بيروت، لبنان، (د، ط)، 1995م، ص303.

[vi] عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء الشّام)، ج1، ص498.

[vii] ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ج3، ص1360.

[viii] ابن العساكر: مختصر تاريخ دمشق، تح: إبراهيم صالح،ج4، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1408هـ/1978م، ص90،91 .

[ix] الأمير أسامةبن منقذ: لباب الآداب، تح: أحمد مُحَّد شاكر، دار تراثية للنّشر والتوزيع والطباعة، القاهرة، مصر،ط1407،1هـ/1978م، ص24.

[x] ابن منظور: لسان العرب، **(مادة رثى)**، ج1،دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1997م، ص102.

[xi] الزّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: إبراهيم الترّزي، ج1، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، (د، ط)،1392هـ /1972م، ص239.

[xii] شوقي ضيف: الرّثاء، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، (د، ت)، ص12.

[xiii] حسين جمعة: الرّثاء في الجاهلية والإسلام، دار معد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1991م، ص21.

[xiv] شوقي ضيف: الرّثاء، ص12.

[xv] مصطفى صادق الرّافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، ط1، 1359هـ/ 1940م، ص104.

[xvi] عبد الرّشيد عبد العزيز سالم: شعر الرّثاء العربي واستنهاض العزائم، وكالة المطبوعات عبد الله حرمي، الكويت، ط1، 1982م، ص07.

[xvii] أسامة بن منقذ: الديوان، ص344.

[xviii] المصدر نفسه، ص347.

[xix] المصدر نفسه، ص350.

*مَا هيـلَ: صبّهُ بتتابعٍ.

* جوى: شدّةِ الحزن.

[xx] المصدر نفسه، ص350،351.

[xxi] المصدر نفسه، ص348.

[xxii] المصدر نفسه، ص348.

[xxiii] المصدر نفسه، ص353.

[xxiv] المصدر نفسه، ص353.

[xxv] المصدر نفسه، ص353،354.

[xxvi] المصدر نفسه، ص358،359.

[xxvii] أسامة بن منقذ: المنازل والديّار، تح: مصطفى حجازي، دار سعاد الصَباح، القاهرة، مصر، ط2، 1412هـ/ 1992م، ص78.

[xxviii] أسامة بن منقذ: الديوان، ص359.

[xxix] المصدر نفسه، ص351.

[xxx] المصدر نفسه، ص351.

[xxxi] أسامة بن منقذ: المنازل والديّار ، ص27.

[xxxii] المصدر نفسه، ص26.

[xxxiii] المصدر نفسه، ص78.